

جمالية الرسالة الإخوانية في العصر المملوكي

The beauty of the Brotherhood message in the Mamluk era

* د. خيرة دهاش

جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر.

البريد الإلكتروني: Kheiradehache.22k@gmail.com

ملخص البحث

إنّ المطلّع على أدب العصر المملوكي يدرك أهمية الرسالة الفنية التي أخذت مكانتها في العصر المملوكي نظرا لما تحمله الرسالة من الجانب الإخواني، و ما تحمله الرسالة من قيم فنية ، و عليه يهدف البحث إلى التعرف على إنتاج الكتاب و دراسة خصائص أسلوبهم، فما هي الرسالة الفنية؟ و ما علاقتها بالشعر؟
الكلمات المفتاحية: جمالية- الرسائل الإخوانية- العصر المملوكي.

RESUME:

Il faut savoir l'importance de la lettre artistique qui a pris sa place pendant cette periode grace à ses diverses aspets et ses valeurs artistiques donc l'objectif et le but de cette recherche met en valeur la connaissance de la production des livre et l'analyse des caracteristique de ce types de texte alors qu'est ce qu'une lettre artistique 'et quelle est sa relation avec la poème !

MESSAGES ESTHETIQUE DE LA FRATERNITE AL'EPOQUE MAMELOUKE

* المؤلف المرسل: د. خيرة دهاش Kheiradehache.22k@gmail.com

مقدمة:

تعدّ الرسالة من أبرز الفنون الأدبيّة التي عرّفها الإنسان منذ القدم، ومن خلالها يعبر المرسل عمّا بداخله في شكل فنيّ، ليحمّله للآخرين، لأنّها تترجم ما بذهنه إلى كتابات لتحقيق التّواصل من خلال نقلها للأفكار والثّقافات، كما يشترط أن يكون المرسل قادرا على استعمال التّعابير الملائمة لطبيعة الرّسائل، و قد لقيت اهتماما كبيرا بين الأدباء، فما خصائص الرّسالة الإخوانيّة المملوكيّة؟ و تعدّدت تعريفاتها.

و سنتطرّق من خلال هذه الورقة البحثية إلى معرفة أنواع الرّسالة الإخوانيّة، و ما لها من سمات تعبيريّة خاصّة بها.

تعريف الرّسالة:

أ- لغة:

يعرّفها صاحب مقاييس اللّغة بقوله: "الرّاء و السّين و اللّام أصل واحد مطرد منقاس، يدلّ على الانبعاث و الامتداد. فالرّسل السّير السّهل. و ناقة رسله: لا تكلفك سيقا، و ناقة رسله أيضا: لينة المفاصل و شعر رسل، إذا كان مسترسلا¹

و نستنتج من خلال قوله أنّ الرّسالة معناها الاسترسال و آراء الرّسالة من غير تكلف ترسل: تمهّل و ترقّق. يقال: ترسل في كلامه و قراءته و مشيه. و الكاتب: أتى بكلامه.

و الكتابة شاهدة على أصحابها²

و يُقصد بالرّسل التّمهّل و التّأني، و عدم العجلة، و يلتقي كلّ من ابن منظور وأصحاب المعجم الوسيط في أنّ الرّسل معناه التّمهّل و عدم العجلة كما أنّها تدلّ على الاشتراك بين أطراف الرّسالة، كما أنّ الكتابة تترك أثرا و هذا ما يجعلها تشهد على أعمال أصحابها رغم غيابهم.

و عليه نفهم من قوله أنّ للرسالة ثلاثة شروط أولها التكرار، و ثانيها الاشتراك كما يشار إليه أيضا في المعجم الوسيط، و ثالثها الغياب و بعد المسافة بينهما

و عليه فللرسالة أنواع مختلفة منها الرسالة الإخوانية، فما هي الرسالة الإخوانية و ما علاقتها بالجانب الاجتماعي لكتابها؟

و عليه فللرسالة أنواع مختلفة منها الرسالة الإخوانية، فما هي الرسالة الإخوانية و ما علاقتها بالجانب الاجتماعي لكتابها؟

ب- اصطلاحا:

الرسائل الإخوانية : هي عبارة عن رسائل تخلو من الرسمية، و غالبا ما تركز على العواطف الإنسانية، و تندرج الرسالة الإخوانية ضمن إطار التهاني و غيرها.

أولاً: التهاني:

و "كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، ومنازلهم في الصناعة، و مواقعهم في البلاغة. وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنية البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، و الإبانة عن موقع الموهبة، و تضاعف السرور بالعطية و أغراضها و معانيها متشعبة لا تقف عند حد، و إنما نذكر منها الأصول التي تفرعت منها"³.

و الإخوانيات تتسم بالطابع الإنساني، الذي يخاطب مودة صديق، أو شكره، أو عتابه أو تعزية شخص.

والرسائل الإخوانية : "هي رسوم من المكاتبات الإخوانيات - و هي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - و المراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء"⁴

و قد كانت في أحيان أخرى تكتب المكاتبات باسم المكتوب إليه تفخيما لأمره، و تعظيما لشأنه"⁵

والرسالة الإخوانية : "تناول موضوعا أدبيا يكتبه الأديب لصديقه شعرا أو نثرا، أو يتضمن لغزا، أو حلا لمعضلة علمية معينة، أو اعتذار عن تقصير، أو عتاب عن تأخير. وقد تكون في مديح، أو رثاء، أو ثناء على صفاته و أخلاقه. و الأديب يعتني برسالته اعتناء أدبيا و لغويا ملحوظا، فتراه يستخدم الأسلوب المنمق، و المصنوع بفنون الصنعة البديعية"⁶

و الإخوانيات لها : "موقع خطير من حيث تشترك الكافة في الحاجة إليها. قال: و الكاتب إذا كان ماهرا، أغرب معانيها، و لطف مبانيها، و تسهل له فيها ما لا يكاد أن يتسهل في الكتب التي لها أمثلة و رسوم لا تتغير و لا تتجاوز"⁷

و يطلق عليها أيضا الرسائل الأهلية، أو ما يتعلق بالأهل و الخلان و تعرف أيضا برسائل الأشواق،" و هي ما دارت بين الأقارب و الأصدقاء، و أسفرت عن مكنون الوداد، و سرائر الفؤاد، و لا حرج على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على سجيته"⁸

أنواع الرسائل الإخوانية:

من الرسائل الإخوانية نجد التهاني التي تدل على الفرح و الابتهاج، من خلال تطرق الكاتب إلى التعبير عن لواعجه و خواطره.

فالرسالة الإخوانية تحبر إلى شخص بعينه، و تحمل معاني وجدانية شخصية تجمع كاتبها بمتلقيها و الرسائل الإخوانية : و كانت المكاتبات الإخوانية تبدأ بلفظ : "من فلان إلى فلان، سلام عليك، إلي احمد الله إليك الله الذي لا اله إلا هو" فلما كانت خلافة الرشيد و أمر أن يزداد هنا في السلطانيات "و أسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده و رسوله" كما تقدم في موضعه، جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضا، و كان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا، و أنت، و لي، و لك، و عندي، و عندك، و ما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب، و كانت خاتمة الكتب عندهم

السلام"⁹

كما تبدأ الرسالة الإخوانية باسم المكتوب إليه :تفخيما لأمره، و تعظيما لشأنه ، و كان رسمهم في ذلك أن يفتتحوا المكاتبة بلفظ "إلى فلان من فلان "سلام عليك، فاني احمد إليك الله الذي لا اله إلا هو" ¹⁰

التهنئة :

"كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، و منازلهم من الصناعة، و مواقعهم من البلاغة.وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، و الإبانة عن موقع الموهبة، و تضاعف السرور بالعطية، و أغراضها و معانيها متشعبة لا تقف عند حدّ، و إنما نذكر منها الأصول التي تفرعت منها فروع رجعت إليها، و حملت عليها"¹¹

قال الشاعر: أحب أخي وان أعرضت عنه و قل على مسامعه كلامي

و لي في وجهه تقطيب راض كما قطبت في وجه المدام

و رب تقطّب من غير بغض و بغض كامن تحت ابتسام¹²

الاجتمع المملوكي و علاقته و أسلوب المصريين في الحياة و علاقاتهم و عاداتهم و تقاليدهم و احتفالاتهم^{قال الشاعر:}

يقول أخي شجاك رحيل جسم و روحك ما له عنها رح

فقلت له: المعاین مطمئن لذا طلب المعاينة الرحيل

و أيضا:

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي فروحي عندكم أبدا مقيم

و لكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم¹³

و قيل في التهنئة : "كتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، و منازلهم من الصناعة، و مواقعهم من البلاغة و هي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، و الإبانة عن موقع الموهبة، و تضاعف السرور بالعطية، و أغراضها

و معانيها متشعبة لا تقف عند حد¹⁴

قيل في العتاب :

"المكاتبة بالمعاتبة على التحول على المودة و الاستخفاف بحقوق الخلة من المكاتبات التي يجب أن تستوفى شروطها، و تكمل أقسامها :لأن ترخيص الصديق لصديقه في المقاطعة و المصارمة دال على ضعف الاعتقاد، و استحالة الوداد"¹⁵

و ما الرسائل الإخوانية نجد أن الكاتب يكتب إلى المكتوب إليه بكاف الخطاب: "يكتب الرجل إلى ابنه : بأبي أنت أو : فذك أبوك أو : مات قبلك أو : أسأل الله عز وجل حفظك و حياتك و رعايتك أو : أرشدك الله أمرك أو : أحسن البلاغ بك أو : بلغ الله بك أفضل الأمل، و أتم السرور بك، و جعلك خلفا صالحا، و بقية زاكية"¹⁶

و قد كانت المكاتبات الإخوانية تفتتح بالدعاء

أما خواتم الكتاب فقد كان "السلام"، أو يختم بالدعاء، أو ذكر التودد و المحبة¹⁷

و من الرسائل الإخوانية أننا نجد أيضا التهنة بالخلافة فأما التهنة بالخلافة فقد كانت "من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء و العزاء، و إكبارا لهم و تعظيما. إلا أننا رأينا ذوي الأخطار من القدماء قد شافهوهم بالعزاء مسلّين، و بالهناء داعين، و ربما دفع الكاتب إلى صحبة رئيس يقتضي محله أن يهنئ الخليفة بمتجدد النعم لديه، و يعزّيه لمتطرق النوائب إليه، فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء و عزائهم ما يحتذي عليه، عند الحاجة إلى استعمال مثله"¹⁸

"كما لا ينبغي أن يهنأ الخليفة بالخلافة إعظاما، فكَذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه، إلا أنه ربما دعت ضرورة الكاتب إلى ذلك"¹⁹

و ينهي ورود المثال العالي بما ملأ القلب خيرا و اليد برّا، و السمع بشارة و الوجه بشرا، حتى تنافست الأعضاء على تقبيله، و الجوارح على تأميله، فاليد تسابق إلى مننه بالامتداد، و القلب يسابق إلى كرم عهده بالاعتداد، و الوجه يقلّب ناظره في سماء مواقع القلم، و السمع ينعم بما تقص

عليه المسار من أخبار جيرة العلم، حتى كاد المملوك يمحو بالتقيل أسطره، و يشتغل بذلك عن استجلاء ما ذكره المنعم لا عدم المملوك في مصر و الشام تكرر، و فهم ما أشار مولانا إليه من الفضل الذي مولانا أهله، و كرم العهد الذي لا ينكر من مثله و أين مثله، و قابل المملوك جميع ذلك بجهده²⁰

و تزخر هذه الرسالة بالمحسنات البديعية مثل السجع في قوله: نعمه ، ديمه ، ذمه ، مفرده.
و قوله : الامتداد ، الاعتداد.

و هذا السجع بين الفقرات يكسب العبارات جرسا موسيقيا متناغما.
إذ يستهلها الكاتب بالدعاء للمشكور بأن يخلد الله نعمه، و أن لا يشهد في حياته ذمّ الزّمان، و لا ما يعكّر صفو حياته، لأنّه كريم بمن حوله، يملأ أيديهم، بشوش يسرّ وجوههم بالبشارة الحسنة، ففكّل الحواس تحبّه و تستهويه، فاليد تقبض من يده الطّيبة الهبات و الهديات، و تحبّه القلوب لوفائه بعهد الحبّة، و كذلك الوجه، و السّمع يفرح بما ترويه النّاس عنه من طيّب الأخبار عنه، ذلك أنّه أهل الفضل، الذي لا يوجد له نظير.

2_ أنواع الرسائل الإخوانية:

أولا: التّهاني:

أ- التهنئة بولاية الوزارة :

ذلك أن "الوزارة كانت في الزّمن المتقدم هي أرفع وظائف المملكة و أعلاها رتبة، و أنّها الرّتبة الثّانية بعد الخلافة. وكانت في زمن الخلفاء تكاد أن تكون كالسلطنة الآن"²¹

مثل تهنئة امرأة لأمير جاندار برتبته ومن إنشاء ابن نباته في ذلك : "أعلى الله منارها، و خلد قبورها و إقبالها، وأجزل من الغض الذي تناولته ثمرها و أسبغ به ظلالها، و لازال في سيفها و عصاها مآرب للملك، و في بأسها و نداها مواقع للنّجاة و الهلك، و لا برحت القضب من سيوف و غصون : هذه حاكمة بسعدها حكم الملك، و هذه مسخرة في تجريدتها تسخير الفلك، تقبيل

مخلص في ولائه ودعائه، مهناً القلب مسرور بما يتجدد من مسرات مولانا و هنائه، و ينهي أنه بلغه ما أفاضته الصدقات الشريفة على مولانا من المبرات، وما جدّدت له من المسرات، و أنها ضاعفت مزيد الإحسان إليه²²

ب- التهنئة بولاية القضاء :

من ذلك التهنئة بولاية القضاء مثل تهنئة شهاب الدين محمود الحلبي : "أنفذ الله تعالى أحكامه، و شكر إحسانه و إنعامه، و خلّده ناصراً للشرعية المطهّرة و أدامه، و جدّد سعده و أسعد أيامه، و جعله المسترشد و المقتفي بأمر الله و الرّاشد و المستنجد و المستنصر و الناصر و العاضد، و الحاكم القائم بأمر الله من القضاة الثلاثة الواحد"²³

ج- التهنئة بكرامة السلطان :

من ذلك تهنئة كتبها شهاب الدين محمود الحلبي : "أدام الله أنصاره، و جعل التقوى شعاره، و ألبسه من المحامد أكرم حلّه، و نوّله من المكارم أحمد خلّه و لا زالت الخلع تتشرف إذا أفيضت عليه، و المدائح تستطاب بذكره لا سيّما إذا أنشدت بين يديه.

الخادم ينهي إلى علم المولى أنه اتصل به خبر أهدى إليه سرورا، ومنحه بهجة و حورا : و هو ما أنعم به المولى السلطان خلّد الله سلطانه، و ضاعف إحسانه : من تشريفه بخلعته، و ما أسبغه عليه من وارف ظله ووافر نعمته، و أبداه من عنايته بالمولى و محبته، و قد حصل له من المسرة ما أجذله، و بسط في مضاعفة سعد المولى أمله، فإنه بلغه أنّ هذه الخلعة كالرياض في نضارتها، و حسن بمحتتها، و أنها كلما برقت برق لها البصر، و ظنّها لحسنها حديقة و قد حدّق إليها النظر، و قد جمعت ألوان الأزهار، و أرى من ناسجها في اللطف على نسمة الأسحار، و أسكنت حبها حبات القلوب التي في الصدور، ووسمت عن المدح برائق المنظوم و فائق المنشور"²⁴

د- التهنئة بالخلاص من الاعتقال:

قال شهاب الدين الحلبي في ذلك: "جدد الله سعده، و ضاعف جدّه، و أنجح قصده، و أعذب منهله وورده، و لا انفكت الأيام زاهية ببقائه، و الأنفس مسرورة بارتقائه إلى رتب عليائه. أصدرها تفصح عن شوق يعجز عن سوقه الجنان، و يقصر عن طوله اللسان، و سرور تزايد حتى أبكاه، و لاعج بمشاهدة طلعت السعيدة أغراه، و تهنیه بما جدد الله له بعد الاعتقال من الفرج و الفرح، و من به بعد ضيق الخواطر من الابتهاج و المرح، فهذه المسرة ماء زلال برد بها الاوام، و إنعام عام، حمد الله عليها الخاص و العام، فالحمد لله الذي عوّضه عن مآثم الحزن بمآثم من السرور، و عن الهم المانع عن الورد و الصدور بانشرح الصدور، فإن القلوب شغفها حبه و شغفها، و ضاعف لتعويقه أساها و أسفها، بحيث اعترى المناطق قلق و علاها اصفرار، و عطّلت يد كل غانية من الحلبي فما ضمّها قلب و لا سوار، و لبس الخطباء حزنا و ألبسته المخابر، و كادت لغيبتها و فقد اسمه تندبه الجوامع و تبكيه المنابر، و خلّد الله سعادته، و سهّل له من خيري الدنيا و الآخرة قصده و إرادته، بمنه و كرمه"²⁵

هـ- التهنئة بالقدوم من السفر :

يقول شهاب الدين محمود الحلبي في تهنئة بقدوم سفر : "أدام الله ظله، ورفع محله، و شكر إنعامه و فضله، و أعزّ أنصاره، و ضاعف اقتداره، و لازال مؤيدا في حركاته، مسددا في سائر فعالاته، مصحوبا بالسلامة، في المهامه و القفار، مخصوصا من الله تعالى بالأعوان و الأنصار"²⁶

ثانيا: التعازي:

من الرسائل الإخوانية نجد رسالة التعزية، و التعزية تشمل كلّ فئات المجتمع، مثل التعزية بالابن و غيرها.

أ- التعزية بالابن :

من ذلك إنشاء جمال الدين بن نباتة منها: "وأحسن عزاءه بأعز فقيد، و أحب حبيب ووليد، و عوّض بجميل الصبر جوانحه التي سئلت عن الأسى فقالت :ثابت و يزيد. صدرت هذه المفاوضة تهدى إليه سلاماً يعزّ عليه أن يتبع بالتعزية، و ثناء يشق عليه أن يطارح حمائم سجعه المطرية بحمائم الشجوة المبكية المنكية، و توضّح لعلمه ورود مكاتبتة المؤلمة، فوقفنا عليها إلا أنّ الدّمة ما وقفت، و خواطر الإشفاق عليه و على من عنده طفت حرقها وما انطفت، و علمنا ما شرّحه و لم يشرح الصدر على العادة - من وفاة الولد فلان، سقى الله عهده و لحده، و نظر وجهه وتعمّد بالرضوان خاله و خدّه، و ما بقي إلا التمسك بأسباب الصبر، و التفويض إلى من له الأمر، و الدنيا طريق و الآخرة و الآخرة دار و دهليزها القبر، و للمرء من تثبته وازع، و الاجتماع بالأحبة الراحلين واقع، إن لم يصيروا إلينا صرنا إليهم، و إن لم يقدموا في الدار الفانية علينا قدمنا في الدار الباقية عليهم، نسأل الله تعالى أن يجمعنا في مستقر رحمته، و يحضرنا مع الأطفال أو مع المتطفلين و لائم جنته و الله تعالى يدارك بالصبر الجميل قلبه، و لا يجمع عليه فقد الثواب و فقد الأحبة"²⁷

ب-العزاء بوفاة سيدة:

قال شهاب الدين محمود الحلبي : "لما علم مملوك المجلس السامي أطلال الله بقاءه، و أعظم أجره و أحسن عزاءه، و فاة السيدة المرحومة سقى الله عهدها عهداً يبيل الثرى، و جعل الرحمة لمن نزلت به لها القرى، تألم لفقدها غاية الألم، ووجد حرقه كسته ثوبي ضنى و سقم، و حزنا لا يعبر عنه بعبارة بيانه، و لا يستوعب وصفه بلسان قلمه و بنانه.

و المولى أولى من عزّى نفسه، و استحسّن رداء الصبر و لبسه، و علم أنّ الموت غريم لا ينجي منه كثرة المطال، و لا يدافع بالأطالاب و الأبطال، و أنّه إذا طالب بدمّة كان ألدّ الخصام، و إذا حارب فعل بيده ما لا تفعله الكمأة بحدّ الحسام"²⁸

ثالثا-رسائل الشوق:

و هي الرسائل التي يعبر المبدع من خلالها عن مشاعره النبيلة، المتمثلة في العواطف التي يرسلها للبعيد الغائب عن العين.

وفي التشوق : "و ينبغي للكاتب أن يجمع لها فكره، و يظهر فيها صناعته، و يأخذ في نظمها مأخذا من اللطافة و الرقة يدلّ على تمازج الأرواح، و أتلاف القلوب، و ما يجري هذا المجرى، و أن يستخدم لها أعذب لفظ و ألطف معنى، و يذهب فيها مذهب الإيجاز و الاختصار، و يعدل عن سبل الإطناب و الإكثار، لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيملّ و يضجر، و ينتظم في سلك الملق و التكلف اللذين لا يعتادها المتصافون من الأصدقاء"²⁹

ومن التشوق ما قاله ابن نباتة "... لازل الدهر يقضي خدمه، و يمضي رأيه و سيفه و قلمه، و يرضي الدول الشاكرة تقديمه فيها و قدمه، و لا برحت الأقدار المعربة تجزم أمره و تكسر ضده و ترفع علمه، تقييلا إذا لثم الترب الثمه، و إذا أودع القلب في ذلك الترب ختمه"³⁰

رابعا: رسائل الشكوى:

تعريفها : فشكوى المبتلي تدلّ على : "التهالك بالجزع، و ضعف التماسك و قوة الهلع، باستيلاء القنوط بالإيأس، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه، و التسليم إليه، و الرضا بأحكامه، و توقّع الفرج من عنده، و تلقى اختياره بالصبر، كما تتلقّى نعمه بالشكر، و نحو هذا مما يليق به و يجري مجراه، قال :وقد يكتب الأتباع للرؤساء رقاعا بشكاية الأحوال و مساءلة النّظر، ثم ذكر أنّ سبيل هذه الرّقاع أن يعدل بها عن التصريح بالشكوى إلى لفظ الشكر و معناه، و طلب الزيادة

و الإلحاق بالنّظر في الإحسان : لما في إطلاق الشكاية، و التصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمه النّظر فيه من أحوال خاصّتهم و تعهّد مرافقهم من الكفاية"³¹

نموذج عن شكوى في العصر المملوكي و قد أجاب فيها ابن نباتة كاتب السر نيابة عن نائب الشام الذي ردّ على طلب الإقطاع قائلا : "لازال قلمها يمدّ على الإسلام ظلّا ظليلا، و يستجد

صنعا جميلا، و يأخذ بأمر الله أعداء دينه أخذا وبيلا، و يقوم باجتهاده في مصالح الملك النهار كله و الليل إلا قليلا، تقبيل كواظب على ولاء لا يجد له تبديلا، و ثناء لو سمعه المحب فشافه الأحاب إذا لاخذوه خليلا³²

خامسا: الشكر:

و الشكر هو أن تكون مودعة : "من الاعتراف بأقدار المواهب، و كفاية الاستقلال بحقوق النعم، و الاضطلاع بحمل الأيادي، و التهوؤ بأعباء الصنائع، وما يشحذ الهمم في الزيادة منها، و يوثق المصطنع بإفاضة الصنع، و يعرب عن كريم سجية المحسن إليه³³ و الشكر ترجمان النية، و لسان الطوية، و شاهد الإخلاص، و عنوان الاختصاص، عندي من إنعامه، و خاصّ برّه و عامّه"³⁴

كما ينبغي للكاتب في رسائل الشكر "أن يفتن فيها، و يقرب معانيها، و ينتحل لها من ألفاظ الشكر أنوطها بالقلوب : لتستقين نفس المنفصل أنه قد اجتنى ثمرة تفضله، و حصل من الشكر على أضعاف ما بذله من ماله أو جاهه، إلا أنه ينبغي أنها إذا كانت صادرة من الأتباع إلى رؤسائهم، ومن يرجع إلى اختصاص و أثره، أن لا تبني على الإغراق في الشكر: لأن الإغراق في الشكر يحمل هذه الطبقة على التملق الذي لا يليق إلا بالأبعاد الذين يقصدون الدلالة على استقلالهم بحقوق ما أسدي إليهم، فأما من ضفا عليه من النعم ما يدفع الشك في اعترافه بالذل لديه، فإنه يغنى عن المبالغة في الشكر و الاعتداد، ثم قال : و إنما يجب أن يذهب فيما يكتب عن هؤلاء من هذا الفن مذهب الاختصار، و الإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعاني الشكر، دون مذهب الغلو و الإفراط، و ذو الطبع السليم، و الفكر المستقيم"³⁵

نموذج عن رسائل الشكر عند جمال الدين بن نباتة :

"خلّد الله على الممالك نعمه، و على الممالك ديمه، وحرّم ببقائه ذم الزمان و أوجب ذمه، و لا برج نحو المحامد ينادي يوم الكرم مفرده و يوم الهياج علمه. تقييلا يسحب في الفخار يروده المعلمه، و يتذكر بالقرب فلا يزال الشوق ينتجه حيث كلا التذكار و العهد مقدّمه.

و ينهي ورود المثال العالي بما ملأ القلب خيرا و اليد بزا، و السمع بشارة و الوجه بشرا، حتى تنافست الأعضاء على تقييله، و الجوارح على تأميله، فاليد تسابق إلى مننه بالامتداد، و القلب يسابق إلى كرم عهده بالاعتداد، و الوجه يقلّب ناظره في سماء مواقع القلم، و السمع ينعم بما تقص عليه المسار من أخبار جيرة العلم، حتى كاد المملوك يمحو بالتقيل أسطره، و يشتغل بذلك عن استجلاء ما ذكره المنعم لا عدم المملوك في مصر و الشام تكرره، و فهم ما أشار مولانا إليه من الفضل الذي مولانا أهله، و كرم العهد الذي لا ينكر من مثله و أين مثله، و قابل المملوك جميع ذلك بجهد³⁶

سادسا-العتاب:

و المكاتبة بالمعاقبة تدل على التحول عن المودة و "الاستخفاف بحقوق الخلة من المكاتبات التي يجب أن تستوفى شروطها، و تكمل أقسامها : لأن ترخيص الصديق لصديقه في المقاطعة و المصارمة دال على ضعف الاعتقاد، واستحالة الوداد"³⁷

قال الشاعر في العتاب :

إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وَدٌّ وَيَبْقَى الْوَدَّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ³⁸

من كلام المتقدمين في العتاب : "إنني ما أحدثت نبوه، إلا بعد أن أحدثت جفوه، و لا أبديت هجرا، إلا بعد أن أبديت غدرا، و لا لويت وجهها عن الصلة، إلا بعد أن ثنيت عطفا إلى القطيعة، و الأول منا جان، و الثاني حان، و المتقدم مؤثر، و المتأخر مضطر، و كم بين فعل المختار و المكره، و المبتدع و المتبع"³⁹

خاتمة:

و من خلال ما سبق نصل إلى النتائج الآتية:

- الرسالة الإخوانية كثيرة في العصر المملوكي، و هي نوع من الرسائل التي تعبّر عن حالة المجتمع المملوكي، من حيث حزنه و فرحته و غيرهما.
- التّهاني نوع من الرسائل الإخوانية التي تعبّر عن الفرحة و البهجة بأساليب مختلفة.
- التعزية من الرسائل الإخوانية التي تعبّر عن الحزن و الجزع الذي يشعر به كلّ من الكاتب و الجزع، و محاولة تهدئة النفس من ذلك، لأنّ كلّ أمر مرجعه إلى الله.
- كثرة رسائل الشّوق المكتوبة للبعيد المعبّرة عن مدى حنوّ الكاتب، أو المرسل على المرسل إليه.
- كثرة رسائل الشّكوى في مختلف الموضوعات، لذلك كثرت الكتابة في ذا الشّأن.
- كثرة رسائل الشّكر المعبّرة عن فضل المشكور، ومكانته في المجتمع.
- كثرة رسائل العتاب الدّالة على محبة المعاتب للمعاتب، فلولا رابط المحبة و الأخّة ما كان ليزر هذا النوع من الرسائل الإخوانية، و يبرع الأدباء فيه.

الهوامش:

- 1- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، ج2، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، دط، دت، ص 392.
- 2- ينظر إبراهيم مدكور و آخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص دار الدّعوة اسطنبول، تركيا، دط، 1989، ص 344.
- 3- أبو العبّاس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج9، المطبعة الأميريّة، القاهرة مصر، دط، دت، 1916، ص 05.
- 5- أبو العبّاس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج8، المطبعة الأميريّة، القاهرة مصر، دط، دت، 1915، ص 126.

- 7- المرجع نفسه ص 127.
- 8- محمد التّونجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط2، 19
- 9- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، ج1، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1969، 27، ص 45.
- 10- أبو العباس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج9، ص 05.
- 11- المرجع نفسه ص 06.
- 12- المرجع السابق نفسه، ص 12.
- 13- أبو العباس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، ج9، ص 18.
- 14- المرجع نفسه، ص 26.
- 15- المرجع السابق نفسه، ص 29.
- 16- المرجع نفسه، ص 36.
- 17- المرجع نفسه، ص 80.
- 18- المرجع السابق نفسه، ص 82.
- 19- المرجع السابق نفسه، ص 92.
- 20- المرجع السابق نفسه، ص 142.
- 21- المرجع السابق نفسه، ص 144.
- 22- المرجع السابق نفسه، ص 173.
- 23- المرجع السابق نفسه، ص 182.
- 24- المرجع السابق نفسه، ص 183.
- 25- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، ج1، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، ط1969، 27، ص 111.

- 26- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص183
- 27- المرجع نفسه، ص 188.
- 28- المرجع السابق نفسه، ص 189.
- 29- أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، ص 279
- 30- صبح الأعشى، ج9، ص 189.
- 31- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 126.
- 32- المرجع نفسه، ص 127.
- 33- القلقشندي، صبح الأعشى، ج 9، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، 1916.
- 34- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، ج1، دار الجليل، سوريا، ط1981، ص5، ص11
- 35- أبو الحسن علي بن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المجلد 1، تح، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، ص 174.
- 36- القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص 05.
- 37- المرجع نفسه، ص 189.
- 38- المرجع نفسه، ص 126.
- 39- ينظر المرجع نفسه، ص 159.
- 40- المرجع السابق نفسه، ص 398.
- 41- أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، دط، دت، ص 188.